مسجد الشهيد ياسر عرفات (أبو عمار)
مجمع القدس - نابلس

طاهر المصري

هذا عنوان لكتاب صدر عن مؤسسة منيب رشيد المصري للتنمية، بمناسبة مرور عشرة أعوام على استشهاد القائد الرمز ياسر عرفات، ويحوي الكتاب على مئة وخمسة وثمانين صفحة من القطع الكبير، توضح ما يحوي عليه مجمع القدس، بالإضافة إلى حكاية منيب رشيد المصري مع الشهيد ياسر عرفات في إطار يجمع الوطني العام بالشخصي، ويضم الكتاب أيضا مجموعة كبيرة من الصور التي جمعت الشهيد القائد ياسر عرفات مع شخصيات فلسطينية وعربية ودولية، في تجسيد مصور لحياته التي وهبها للقضية الفلسطينية ومهجة فؤاده مدينة القدس.

على الغلاف الأمامي الخارجي للكتاب صورة لمسجد الشهيد ياسر عرفات الذي تم بناؤه على قمة جبل جرزيم (جبل الرحمة)، وعلى الطراز العثماني ويحوي أربع مآذن بالإضافة إلى الزخارف الإسلامية الداخلية، ويعتبر من أجمل ما بني من مساجد في فلسطين، وعلى الجزء الآخر من الغلاف صورة للشهيد عرفات بالإضافة إلى نسخة عن توقيعه بالعربية والانجليزية وتاريخ مولده واستشهاده.

في الإهداء الذي كتبه منيب رشيد المصري بخط يده على الصفحة الداخلية الأولى من الكتاب يقول: "من على قمة جبل جرزيم الضارب الجذور في أعماق التاريخ من "بيت فلسطين" وعبر شارع الشهداء تصل إلى مجمع القدس التي عشقتها، وورثت هذا العشق إلى بناتي وأبنائي، حفيداتي وأحفادي، أمنتهم عليها كما يفعل كل فلسطيني وعربي ومسلم، ...، أهدي هذا الكتاب إلى جميع من ضحوا وما زالوا يضحون في سبيل الحرية والكرامة والقدس والدولة".

وتحت عبارة "القدس" يورد الكتاب المقولة الخالدة للشهيد ياسر عرفات "سيأتي اليوم الذي يرفع فيه شبل من أشبالنا أو زهرة من زهراتنا علم فلسطين فوق أسوار القدس وكنائس القدس ومساجد القدس".

"مجمع القدس": وهو عنوان الكتاب الذي أصدرته مؤسسة منيب رشيد المصري للتنمية، بعد أن قامت وكجزء من واجبها الوطني والأخلاقي، ووفاء للشهيد ياسر عرفات ببناء مجمع القدس على قمة جبل جرزيم في نابلس، الذي يحوي على مسجد الشهيد ياسر عرفات (أبو عمار)، وقاعة السلطان عبد الحميد الثاني، ومركز غزة الترفيهي لكبار السن. ويقول منيب رشيد المصري في إحدى صفحات الكتاب في سبب إعطاء هذه التسميات الأربع "بأن فكرة الربط بين شهيدنا الخالد ياسر عرفات والمرحوم السلطان عبد الحميد الثاني، وغزة ووضعهم تحت مظلة "القدس"، كانت تراودني منذ زمن وكان لدي إيمان قوي بأن هناك شيئا ما في التاريخ والجغرافيا والبعد الوطني يربط ما بينهم ووجدت ضالتي في كتب التاريخ، ...، فكل هؤلاء جمعتهم فلسطين وعشقوها، وكانوا جزءا منها وقدموا لها الكثير.

ثم يتحدث الكتاب عن سبب كل تسمية على حدة، مرفقة بصور للمسجد، ولقاعة السلطان عبد الحميد الثاني، ولمركز غزة الترفيهي لكبار السن، حيث تحكي لنا هذه الصور عن حفل افتتاح "مجمع القدس"، الذي كان بتاريخ الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٤، ضمن فعاليات إحياء الذكرى العاشرة لاستشهاد القائد الرمز ياسر عرفات، وشارك في حفل الافتتاح شخصيات رسمية وشعبية من الداخل والخارج، ومن كل مكونات الشعب الفلسطيني تعبيرا منهم عن الوفاء للشهيد ولفلسطين.

ثم ينتقل الكتاب فينا إلى لمحة مطولة وشاملة عن حياة الشهيد ياسر عرفات منذ ولادته ولغاية استشهاده، مبرزا أهم المحطات في حياته الحافلة بالعطاء والتضحيات، منذ أن شارك في قتال ضد العصابات الصهيونية عام ١٩٤٨، مروراً بتأسيس حركة "فتح" وتوليه لرئاسة منظمة التحرير الفلسطينية، وإشرافه وتنظيمه لعمليات الكفاح المسلح في الأرض المحتلة بعد هزيمة عام ١٩٦٧، ومعركة الكرامة، واحداث أيلول، ومرحلة لبنان وتونس والجزائر وإعلان الاستقلال عام ١٩٨٨، وصولا إلى اتفاق أوسلو والعودة إلى الوطن، وحصاره داخل مقر المقاطعة في رام الله، واستشهاده. وما بينها من أحداث مرت بها القضية الفلسطينية وصنعها الشهيد ياسر عرفات. وينتهي هذا الجزء من الكتاب بمقولة أبو عمار وهو تحت الحصار: "يريدونني إما قتيلا وإما أسيرا وإما طريدا ولكن أقول لهم: شهيدا ... شهيدا ... شهيدا".

وتحت عنوان "رحلتي مع الشهيد أبو عمار"، حيث يتحدث فيه السيد منيب رشيد المصري عن بدايات معرفته بالقائد ياسر عرفات فيقول: "بدأت حكايتي مع أخي الحبيب القائد الشهيد ياسر عرفات منذ العام ١٩٦٣، في الجزائر، واكتشفت خلال الأربعين عاما التي عرفته بها عظمته وتميزه. عايشته في أحوال الشدة والتألق، وكنت أرى فيه دوماً الإنسان القوي المتواضع، والشجاع الجريء ببعد نظره، والمقاتل دوماً والذي لا يستسلم من اجل فلسطين، ومهجة فؤاده القدس".

وكيف التقى به للمرة الأولى يقول المصري: "... وفي احد الأيام وبينما كنت جالساً في مكتبي دخل "أبو جهاد" عليّ ومعه رجل بملابس مدنية قال لي أبو جهاد بأن اسمه ياسر عرفات. لم أرتح له في البداية لان لهجته كانت مصرية أكثر منها فلسطينية، ويبدو أن عرفات شعر بذلك فقال لي: "شو القصة... مالك مش مرتاح؟"، فأجبت بأنني تذكرت أحد أبناء عمومتي الذي زار القاهرة لمدة أسبوع، وعاد إلى نابلس ليتحدث بلهجة مصرية طوال حياته... فضحك عرفات وقال لي: لا ... لا ... الحكاية أنني منذ طفولتي أعيش في مصر". كان عرفات قد تقبل ملاحظتي بسعة صدر ولطف، بعدها استقبلتهما في بيتي في العاصمة الجزائر، ونشأت بيننا صداقة من نوع خاص، وبعد وقت قليل أصبحت أعتبره الأخ والصديق، لكن في ذات الوقت "القائد"، لأنني رأيت فيه الرجل الملتزم الصادق، وبأن فلسطين تسكن عقله وقلبه، وكنت أسمع من ياسر عرفات كل ما أتمنى أن اسمعه عن فلسطين فزاد إعجابي به، وزادت محبتي واحترامي له".

وعن بدايات العمل مع الشهيد يقول "ذات يوم في العام ١٩٦٤، دخل "أبو عمار" و"أبو جهاد" إلى مكتبي وقالوا أن الزعيم الوطني الفلسطيني احمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية موجود في الجزائر، وأنهما يرغبان بلقائه وطلبا أن أكون معهما فوافقت، ورافقنا أيضا إلى هذا اللقاء الأخ حمدان عاشور، والأخ محمد أبو ميزر. وفي اللقاء الذي جمع أول وفد فتحاوي مع الشقيري وعرفه بحركة فتح، وتحدث "أبو عمار"، بطلبات محددة تركزت على الدعم المعنوي والمادي، وكان يتحدث بحرارة وحماسة، وما كان يتحدث به عرفات كنت متعطشا لسماعه منذ حين، ...، احتد النقاش، وقال أبو عمار للشقيري في نهاية حديثه: "بعد عشر سنوات على الأكثر ستسمع صوتي وكلامي هذا عن القضية الفلسطينية من أعلى المنابر في العالم كله، نحن ثوار ولدينا برنامج نضالي".

في تلك اللحظات خالجني شيء من المبالغة فيما يقوله ياسر عرفات، لكن تأكدت بعد مرور عشر سنوات على تلك الحادثة أن ياسر عرفات كان يتحدث برؤية عميقة وببعد نظر عندما رأيته يوم ١٩٧٤/١١/١٣، يلقي خطابه الشهير أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وزاد إيماني يومها بان هذا الرجل يملك رؤية وحدساً وبعد نظر وخصائص لا تتوفر لغيره.

وعن علاقته بياسر عرفات بعد عودته إلى الأردن يقول المصري في الكتاب: ... بقيت علاقتي القوية مع أبو عمار ومع أبو جهاد وهم أيضا قدموني لجميع كوادر فتح المناضلة، الذين كانوا متواجدين بشكل أساسي مع قوات الثورة الفلسطينية في الأردن. ولأسباب عديدة ليس هذا مجال ذكرها وقعت أحداث أيلول عام ١٩٧٠، والتي أدت إلى خروج المقاومة الفلسطينية من الأردن. مع هذه الأحداث كلف الملك حسين وصفي التل بتشكيل حكومة جديدة، وعرض عليّ وصفي التل والدكتور كمال الشاعر تولي وزارة الأشغال العامة، لإعمار ما دمرته الاشتباكات والمعارك في عمان والأردن خلال الأشهر السابقة، وبخاصة في أيلول. طلبت مهلة للتفكير، وقررت مشاورة ياسر عرفات في الأمر، وحين عرضت الأمر عليه بحضور بعض الأصدقاء والمقربين سارع إلى القول: لا تتردد يا (أبو ربيح)_ منيب، وأيده "أبو إياد" و "أبو جهاد" في وجهة نظره، رغم اعتراض كثيرين عليه، وفعلاً وافقت، وعينت وزيراً للأشغال العامة، وكان شرطي أن لا آخذ راتبي كوزير".

"تعرف وصفي التل إلى ياسر عرفات في بيتي، وكنا نتناقش ونعمل على حل المشاكل والتجاوزات وكان معنا العديد من الأخوة، كانت المواجهات الكلامية والحوارات بين الأخوين عرفات ووصفي التل تمتد إلى الساعة الثانية أو الثالثة من فجر اليوم التالي، لتنتهي بتناول وجبة من البيض المقلي أو الكنافة النابلسية، وقد نام عرفات ووصفي التل عدة ليال في سريرين متقابلين في بيتي. كما جمعت أيضا بين المرحوم جلالة الملك حسين والمرحوم ياسر عرفات في لقاء في بيتي". ويضيف المصري "جاء تطور الأحداث في الأردن على عكس ما يريده عرفات، وتدهورت الأوضاع أكثر، وفي غمرة ذلك عرض عليّ المرحوم وصفي التل، وبناء على طلب من الملك حسين أن نهيئ لاجتماع بين الأخ أبو عمار والملك الحسين من اجل المصالحة وطي هذه الصفحة الصعبة. وفعلاً توجهت مع المرحوم عبد المجيد شومان برفقة سفير المملكة العربية السعودية الأخ أحمد الكحيمي (أبو محمد)، في سيارته، إلى منطقة أحراش عجلون لمقابلة عرفات والسعي لإقناعه بالمصالحة مع الملك حسين، كان أبو عمار محاصراً ومعه عدد من رجال المقاومة الفلسطينية في جبل الأقرع منطقة جبال عجلون، بعد وصولنا دخلنا إلى احد الخنادق تحت الأرض، التي كان أبو عمار موجوداً فيها، وأقنعناه بالخروج إلى "الشمس... أبكانا" أبو عمار" وهو يروي فظائع المعاناة والمآسي التي شهدها في المخيمات وبين الفدائيين، لكنه أبدى استعداداً للمصالحة مع الملك حسين والذهاب إلى عمان".

رافقنا "أبو عمار" في سيارة السفير أحمد الكحيمي، ومررنا بثلاثة حواجز عسكرية أردنية، كدنا نقتل عند أولها حيث صوب جندي أردني غاضب سلاحه على أبو عمار وأوشك أن يطلق النار، لكن أبو عمار تحدث معه ومع الجنود الآخرين عند الحواجز التالية بلهجة حازمة آمرة: التزموا، أنتم تتكلمون مع ياسر عرفات القائد العام لقوات الثورة، وفعلا كان الجنود يلتزمون ويتراجعون، وعند

كل حاجز كنت أشعر أن نهايتنا قد حلت، وكنت أقول "خلص رحنا". ومن هنا تبينت رباطة جأش أبو عمار، وشجاعته.

طلب أبو عمار قبل التوجه إلى عمان أن ننقله إلى درعا (سوريا) ليحضر بعضا من ملفاته، وتوجهنا فعلا إلى درعا، انتظرنا نحو ساعتين لكن ياسر عرفات قال أن الوقت أصبح متأخراً وأنه يفضل أن يتوجه إلى عمان في اليوم التالي، وقال لي: "تعال بكرة".

في اليوم التالي ذهبت إلى درعا لاصطحاب عرفات إلى عمان، لكنه قال لي "اسمع يا منيب، أنت أنقذت حياتي حين أخذتني في سيارة السفير الكحيمي من جبال عجلون، فقد قصف الجيش الأردني الموقع بعد مغادرتنا واستشهد عدد من الفدائيين، وإذا ذهبنا إلى عمان فهل أنت مستعد لتتحمل دمي؟" فأجبته فورا: لا. وتابع "أبو عمار: سوف لا أذهب إلى عمان كرجل عادي بل أذهب واستقبل كرئيس لدولة فلسطين.

وهنا لا بد لي من الإقرار مجددا ببعد نظر وسعة أفق وتميز ياسر عرفات بل وقدرته على استشراف المستقبل، فعندما عاد بعد ذلك بسنوات إلى عمان استقبل فيها كرئيس دولة، وكان ذلك يوم وصوله للمشاركة في تشييع جنازة رئيس وزراء الأردن الشريف عبد الحميد شرف في العام ١٩٨٠. وتذكرت يومها ما كان "أبو عمار" قد أفضى به إلي في درعا قبل نحو عشر سنوات، فزادت قناعة إلى قناعتي بهذا "القائد" و"البطل".

ومع مرور الأيام وتوالي الأحداث، توثقت علاقتي وزادت قوة مع ياسر عرفات، أصبحت أحبه وأحترمه أكثر، أصبحت ألمس أكثر فأكثر بعد نظره وسعة أفقه وحكمته وبساطته، كان يملك قدرة عجيبة على احتواء الناس وإشعارهم بخصوصيتهم وبتميز علاقته مع كل فرد، كان ديمقراطيا يستمع إلى الجميع ويناقش، لكنه صاحب القرار.

لم يكن ليعتمد على شخص واحد في أي موضوع، كان يمد خيوطاً عديدة خمسة، أو عشرة أو خمسين، ويجمعها كلها بيده. كان "يبالغ" أحيانا، أو "يخفف" و"يهون" أحيانا أخرى في بعض الأمور والمسائل، كان يعمل ليلا نهارا لأجل القضية التي سكنته وسكنها.

تواصلت علاقتي مع "أبو عمار" بعد انتقاله والمقاومة إلى لبنان، وكنت مقيما في بيروت، وعايشت لحظات التألق والنجاحات التي كان يسجلها على صعيد القضية الوطنية الفلسطينية، وكانت مرحلة الوجود الفلسطيني في لبنان ينتابها مد وجزر في العلاقة ما بين الثورة والأطراف اللبنانية المختلفة، ناتجة بشكل رئيسي عن التحالفات الداخلية اللبنانية التي كانت الثورة جزءاً منها، وما ترتب على هذا من تبعات سلبية أحيانا على الوجود الفلسطيني.

وكان لدي وبعض الأخوة الفلسطينيين وجهة نظر في هذا الموضوع تتلخص في ضرورة "النأي الايجابي بالنفس" عن الشأن اللبناني الداخلي، ودخلت أنا وبعض الشخصيات الفلسطينية بجدل مع أبو عمار حول هذا الموضوع، وأذكر أنني ولمدة عام تقريبا لم ألتق ياسر عرفات. ولكن كانت قناعتي في ذات الوقت أن الذي يعمل هو الذي يخطئ، وأن بطلاً وقائداً بمستوى ياسر عرفات يحق له ما لا يحق لغيره، وهو المُلم بكافة الخيوط والتفاصيل، ومن المؤكد أن ما يُقدم عليه من فعل له أسبابه ومقدماته.

طبيعة تلك المرحلة في لبنان، كانت تحتم علينا أن نكون بجانب أبو عمار الذي كان يُشعر الجميع بأهمية وجوده ورأيه، فقد كانت تلك المرحلة حافلة بالإحداث من مجزرة تل الزعتر إلى اجتياح الليطاني، إلى الصمود البطولي في بيروت خلال الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، ومجازر صبرا وشاتيلا، وما تلا وسبق كل ذلك من معارك عسكرية وسياسية للحفاظ على القرار الفلسطيني المستقل، بعد الخروج من بيروت، وبخاصة معركة طرابلس عام ١٩٨٣.

بقيت صداقتنا وعلاقتنا على قوتها ومتانتها، وكنت دائما جاهزا لتلبية أي طلب يطلبه مني وتنفيذ أي تكليف أو أمر يصدره لي. كنت أراه قائدا ملهما وأسمع كلامه، وبالنسبة لي كانت أخطاؤه تتلاشى أمام ما يمثله ويجسده من التزام واندفاع وإخلاص في سبيل القضية الفلسطينية، وأيضا لما كانت نفسه تنطوي على خصال إنسانية رائعة، ومنها بساطته في العيش، وداعته ورقته، وتواضعه رغم صلابته وعزيمته وقوته في قيادة الرجال ومواجهة المواقف والأحداث.

بعد خروج ياسر عرفات وقوات الثورة الفلسطينية من بيروت في العام ١٩٨٢، فكرت مع عدد من رجال الأعمال الفلسطينيين في التحرك للقيام بما يمليه الواجب لمساعدة الشعب الفلسطيني، وبما يخدم القضية الوطنية، فانبثقت فكرة مؤسسة التعاون التي أسستها مع عبد المجيد شومان وحسيب الصباغ وعبد المحسن القطان وشخصيات فلسطينية أخرى، وذلك في لندن مطلع العام ١٩٨٣، بهدف دعم وتعزيز صمود الشعب الفلسطيني في مختلف تجمعاته، وبهدف تنشيط العمل السياسي الفلسطيني في الولايات المتحدة الأميركية والغرب بشكل عام.

واعتقد البعض من حول أبو عمار حينها أن مؤسسة التعاون قد تكون من الصيغ القيادية البديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية، ووصلت هذه الشكوك إلى ياسر عرفات، لكننا سرعان ما شرحنا له الهدف من هذه الفكرة، وأكدنا له توجهاتنا وتمسكنا القوي بمنظمة التحرير الفلسطينية وبقيادته، فاطمأن لنا ولم يتأخر عن توفير أي دعم معنوي للمؤسسة، وكنت أزوده، وبشكل دوري، بالتقارير التي تصدر عن مؤسسة التعاون. وفعلا نشطت هذه المؤسسة في العمل، وبخاصة في الأرض المحتلة

في العام ١٩٦٧، وفي كافة التجمعات الفلسطينية في الداخل والشتات.

واذكر أنني عندما شعرت بان المنظمة في وضع "صعب" سياسيا وماليا، وبخاصة بين العامين ١٩٨٦ و ١٩٨٧، قمت بالتعاون مع الأخ أحمد قريع "أبو العلاء" بصفته المسؤول عن الملف الاقتصادي بتنظيم أول مؤتمر اقتصادي فلسطيني عالمي، عقدناه في تونس تحت رعاية ياسر عرفات. كنت أشعر أيامها أن ياسر عرفات بحاجة إلى هذا الدعم المعنوي والسياسي والاقتصادي، وأنه جاء في وقته لتأكيد التمسك به كقائد للشعب الفلسطيني، وجاء رجال الاقتصاد من جميع أنحاء العالم من البلاد العربية والأوروبية والأميركيتين (الشمالية والجنوبية).

في أواخر العام ١٩٨٨، رافقت أبو عمار في رحلته الشهيرة إلى جنيف، حين انتقلت الجمعية العامة للأمم المتحدة من مقرها في نيويورك إلى مقرها الثاني في جنيف للاستماع إلى ما سيقوله القائد ياسر عرفات بخطابه بعد أن رفضت الحكومة الأميركية منح الرئيس عرفات تأشيرة دخول إلى نيويورك لمخاطبة الأمم المتحدة هناك.

وحضرت وشاركت في الاتصالات التمهيدية لبدء الحوار الأميركي مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتابعت عن قرب القائد العظيم وهو يخوض غمار السياسة والدبلوماسية على الساحة الدولية بكل اقتدار لخدمة شعبه وقضيته، ونصحته في تلك المرحلة بأن يكثر من التقاط الصور التذكارية مع كل شخص، أي شخص يزوره أو يلتقيه وذلك للمساعدة في نشر الوجه الإنساني والحضاري لياسر عرفات، قائد الشعب الفلسطيني، على أوسع نطاق ممكن، خاصة في العالم الغربي.

وفي هذا الإطار أيضا أحضرنا إلى تونس كاتبين أميركيين بارزين هما: جون وجانيت ولاك، ذلك لكتابة سيرة ياسر عرفات ونشرها في الولايات المتحدة والغرب.

ومن المواقف التي أعتز بها في علاقتي مع ياسر عرفات انه طلب مني بعد انتهاء أزمة غزو العراق للكويت في العام ١٩٩١، المساعدة في تحرير مئة مليون دينار كويتي "نحو ٣٦٥ مليون دولار" من أموال المنظمة أو فتح كانت جمدت في ذلك الوقت، وكانت فتح ومنظمة التحرير في وضع مالي صعب جدا في تلك المرحلة، وعندما نجحت في تحرير ذلك المبلغ فرح ياسر عرفات وشكرني كثيرا وأشاد بذلك أمام القيادات الفلسطينية، وكنت سعيدا لأنني نفذت طلبه بنجاح، وكنت سعيدا أيضا لأنني نجحت في إسعاده ودعمه معنويا علاوة على المبلغ نفسه الذي كان في أمس الحاجة إليه. وكان يردد أمام الناس الذين يلتقون به "منيب أنقذ حياتي في الأردن، وبقي معنا في جميع منعطفات القضية الفلسطينية، وساعد في وضعنا المادي منه ومن مصادر أخرى، ولم يطلب أي شيء له شخصيا مني"، بل كان دائما مقداما في تلبية حوائجنا من دعم مالي أو أي دعم آخر".

كنت في لندن في العام ١٩٩٤، عندما تلقيت اتصالا هاتفيا من ياسر عرفات أثناء وجوده في زيارة لجنوب إفريقيا، خلاله دعاني للحضور إلى تونس ليراني هناك بعد عودته من جنوب إفريقيا، واخبرني انه يريد أن يشكل أول حكومة فلسطينية بعد اتفاق اوسلو لتتولى قيادة السلطة الوطنية الفلسطينية، ثم أعطى سماعة الهاتف لرئيس جنوب إفريقيا المناضل الكبير الزعيم نيلسون مانديلا ليتحدث معي. كان عرفات يعرف أنني كنت أدعم حزب نيلسون مانديلا "ANC"، هذا الإنسان العظيم، طوال وجوده في سجن النظام العنصري، وأراد مانديلا أن يشكرني وان يتعرف إلى الرجل الذي كان يتبرع لحزبه، وفعلا التقيت مانديلا بعد ذلك في لندن وأصبحنا صديقين.

وصلت إلى تونس بعد أيام من طلب ياسر عرفات فوجدته منهمكا في تشكيل الحكومة، كانت صحيفة "القدس العربي" اللندنية نشرت يومها أن ياسر عرفات يرشح منيب المصري لرئاسة الحكومة، ولم يكن لدي علم بالأمر ولم يفاتحني "أبو عمار" به.

كان "أبو عمار" يسجل الأسماء ويقدم له المستشارون والموجودون اقتراحات، وسمعت أحدهم يقول له: هذا من الضفة .. وفلان من غزة .. فلم يعجبني ذلك، لأن الوطن واحد ولا يوجد فرق ولا يمكن أن يكون فرق بين الكل الفلسطيني والوطن الواحد.

وتحدث إلي "أبو عمار" قائلا: فيصل الحسيني وحنان عشراوي ذكرا لي اسمك يا "أبو ربيح" لتكون نائبا لرئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، وأكون مسرورا لكي تكون نائبا لي، وعندما سمع أخ من غزة بذلك قال له: لازم يكون نائب آخر لك من غزة، فانزعجت من ذلك وقلت له: أنني اخدم بلدي في أية وظيفة أو مركز، فقال لي: رجاءا أن تكون وزير دولة للشؤون المالية والاعمار، فوافقت وكان ذلك وزيراً بلا راتب شهري كشرط مني كما فعلت في الأردن. واقترح ياسر عرفات علي مسمى وزير دولة لشؤون المال والبناء، فشكرته على ثقته وقلت له: أنت تعرف يا "أبو عمار" كم أحبك وكم أعزك .. وأريد منك إعفائي من الوزارة، فقال لي: سيبقى اسمك وزيراً لسنتين، فوافقت على هذا الحل لمحبتي واحترامي لياسر عرفات.

بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية في العام ١٩٩٤، عدت إلى أرض الوطن وكنت احد مؤسسي شركة فلسطين للاستثمار والاعمار "باديكو" وغيرها من الشركات للمساهمة في إعمار الضفة وغزة، وكان عرفات سعيدا ومشجعا لما نقوم به لهذه الشركة، وترأس أكثر من مرة اجتماعات مجالس إدارتها في غزة ونابلس ورام الله، وفكرة أن يكون مقر الشركة الرئيسي في نابلس هي أحدى أفكار ياسر عرفات.

وخلال السنوات التي تلت تواصلت علاقتي القوية مع "أبو عمار" وكنت كعادتي لا أتأخر عن تنفيذ

أية مهمة ولا أتوانى عن تقديم أي نصيحة أو معلومات أو إمكانيات، فقد بقي ياسر عرفات بالنسبة لي كما كان دائما علاوة على الأخوة والصداقة القوية هو "القائد" و"البطل".

وقد عرض ياسر عرفات علي منصب رئيس الوزراء في رام الله في العام ٢٠٠٣، في غمرة الحديث عن إدخال إصلاحات على السلطة، وقال أبو عمار أمام بعض الإخوة في القيادة الفلسطينية أنا أرشح منيب المصري "حريري فلسطين" كما وصفني يومها، وقال ذلك لممثل اللجنة الرباعية، السيد تيري رود لارسون. يومها كنت "عاطفيا" راغبا في قبول التكليف بمنصب رئيس الوزراء، لكن عقلي كان يرفض.

وبعد يومين من حديثه معي ذهبت إلى الرئيس ياسر عرفات برفقة الطيب عبد الرحيم أمين عام الرئاسة وقلت له: لا أريد أن افرق أو أقسم فتح وهي حركة التحرر الأهم في تاريخ الشعب الفلسطيني، وأعتقد بأن أبو مازن اختيار جيد والذي أعتقد أنه يجب أن يكون رئيس الوزراء، وسنتحدث معه حول هذا الأمر لتقوم بتكليفه بتشكيل الحكومة، فوافق أبو عمار، وهذا ما تم فعلا. وكنت أخشى إن قبلت المنصب أو التكليف أن تحدث إشكالات داخل حركة فتح بين مؤيدين ومعارضين لتولي المنصب.

في صيف العام ٢٠٠٤ بات الحصار بكل أشكاله يشتد حول الرئيس ياسر عرفات، اقترحت على مجلس أمناء جامعة القدس الذي كنت رئيسه في ذلك الوقت منح درجة الدكتوراه الفخرية للرئيس ياسر عرفات، وبسبب الحصار المفروض عليه قررنا أن نذهب إليه، وفي مقره بالمقاطعة احتفلنا بمنحه الشهادة وخاطبته قائلا: وبسبب الحصار المفروض على الرئيس أتينا بجامعة القدس هنا، مثلما ذهبت الجمعية العامة للأمم المتحدة من نيويورك إلى جنيف عندما لم تستطع الوصول إلى نيويورك، جاءت جامعة القدس لتزورك وتكرمك وتقول لك نحن معك في إصرارك على حق الفلسطينيين في العيش بكرامة وعزة في دولة مستقلة، ومعك ... ومعك ... ومعك ... ومعك ... في مكافحة الفساد، وفي خيار السلام، ونطالب العالم بأن يرفع الحصار عنك، وأنت الرئيس الشرعي المنتخب.

وقد كان "أبو عمار" سعيدا جدا في ذلك اليوم وشعر بتمسكنا به وبقيادته وبإخلاصنا، واعتبر أن تلك الشهادة من أعز ما حصل عليه.

وتوالت الأيام وقد بقي الرئيس محاصرا في المقاطعة، ولم انقطع عن زيارته أنا وأفراد عائلتي من بناتي وأبنائي وأحفادي وحفيداتي للتأكيد على أنه القائد الوطني، وردد احفادي مباشرة أمامه تحية القدس: القدس لنا، القدس عاصمة دولتنا الفلسطينية، القدس عربية والقدس أبدية والله يحفظ

رئيسنا ياسر عرفات، والآن يرددون نفس التحية ويختمونها بقولهم الله يرحم شهيدنا ورئيسنا وبطلنا أبو عمار".

وكعادتي طيلة فترة وجوده في أرض الوطن، لازمته أثناء مرضه الأخير في رام الله، وعرض علي في تلك الأيام منصب رئيس الوزراء للمرة الثالثة- وكان جوابي له بأنني أريد الحفاظ على تماسك حركة فتح الرائدة.

حين تعرض للانتكاسة الصحية في أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤، لم أشعر بقلق كبير عليه، فقد كنت اعتقد أن ما يحدث هو مجرد غمامة ستزول وسيعود "أبو عمار" بعد شفائه منها كعادته قويا صلبا قائدا وبطلا. (كان أبو عمار يحب أخذ الدواء وكنت أنا أنظف الجوارير من الدواء منتهي الصلاحية).

وفي الساعة الخامسة والنصف صباحا، قال لي وأنا أودعه في المقاطعة بعد أن صعد إلى الطائرة المروحية: "لا تتركني يا منيب" وضم يدي إلى صدره. يبدو أن عقلي وقلبي لم يكونا قادرين على استيعاب رؤية أبو عمار في هذا الموقف، فسقطت على الأرض من سلم الطائرة المروحية وغبت عن الوعي نحو نصف ساعة، واتصل أبو عمار من عمان التي وصلها في طريقه إلى باريس للاطمئنان على صحتي، ولحقت به إلى باريس لأكون قربه، وكانت تلك الأيام من أقسى وأصعب الأيام علي في حياتي، مع أنني كنت دائما مؤمنا بأن ياسر عرفات كطائر العنقاء سيعود، وأنه كما عودنا سيبقى وسينجو. كنت معه في المستشفى وكان وللتاريخ يلازم أبو عمار الأخ ناصر القدوة والأخ رمزي خوري والأخت ليلى شهيد سفيرتنا في ذلك الحين في باريس، وبعض الأخوان المرافقين له في رحلته.

وحتى عندما رافقت جثمانه في رحلته الأخيرة من باريس إلى رام الله كنت في كل لحظة انتظر وأتوقع المعجزة؛ انه سينهض وسأتحدث إليه مجددا، فقد اعتدت عليه طيلة أكثر من ٤٠ عاما بطلا قائدا ملهما، رجلا عظيما شجاعا جريئا إنسانا متواضعا صديقا وفيا لطيفا، كنت أرى فيه الأم بحنانها وحبها وحرصها ومثابرتها، والأب في حنوه وعطفه وإرشاده و"قسوته" وقراراته، وكانت مخيلتي تستعيد الذكريات معه .. وكيف كنت أراه في المجالس كريما ودودا محبا للدعابة ومقبلا على الحياة بزهد ونبل وسمو وإيمان بالله وبمعتقداته وبفلسطين التي عاش واستشهد محبا لها ولترابها ومجاهدا لتحريرها وبناء حاضرها ومستقبلها، ولهذا لم أكن أتصور انه يمكن أن يفقد فقد كل ذلك في لحظة واحدة، لكنها إرادة الله ولا راد لقضائه.

ولم تنقطع علاقتي مع "أبو عمار" بعد وفاته، وما زلت أتردد على ضريحه كلما جئت إلى رام الله ، أقرا على روحه الطاهرة فاتحة القرآن الكريم، وأبثه شجوني، واستعيد شيئا من تلك الأيام التي

افخر واعتز بأنني عرفته ورافقته فيها.

ابتداء من الجزائر، مرورا بالأردن ومن ثم لبنان وتونس، وعودتنا إلى فلسطين، وما بين كل هذه المحطات في تاريخ الشعب الفلسطيني، الجميلة منها والعصيبة، النجاحات والإخفاقات، عايشت أبو عمار الثائر المؤمن بالنصر، الصادق بالقول، الأمين على فلسطين وشعبها، المخلص، العابد، الزاهد. هكذا بدأت علاقتي بالرمز ياسر عرفات، التي لا تزال وستبقى ما حييت".

لا يكفي كتاب واحد أو مكتبة بأسرها للحديث عما أنجزه الشهيد الرمز ياسر عرفات، وكما كان وفيا لشعبه وقضيته، علينا أن نكون أوفياء له ولتاريخه، فهو يستحق أكثر.